رسالة علم

أيها القارئ الكريم:

العلم في نظر الإسلام له رسالة وغاية.

وغايته السموُّ بالإنسان وإبرازُ خصائصه الذاتية على أوسع مدى؛ ليظفر بنِعم الله وينعم باليقين مُدَعماً بسلطان الدليل.

والإنسان في نظر الإسلام من لحظة خُلُقه يمر بمراحل ليست الدنيا إلاَّ إحدى هذه المراحل، وتنشئةُ الإنسان في بطن أُمه بداية مرحلة، ثم نزولُه إلى قبره نهاية تلك المرلحة وبدايةُ مرحلة أخرى.

وتكاد تلمس - وأنت تقرأ القرآن - وهو يذكر مراحِلَ سير الإنسان أن مرحلةَ الحياة تطوى طياً فلا يكاد ينتهي الحديث عن خلقه حتى ترى الحديث عن موته، بلا فصل ينبئ عن إقامة، اللهم إلاَّ ما يُفهَم من معنى التراخي في قوله: ﴿ ثُمَّ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ۝ ﴾ (١)

(١) المؤمنون: ١٢-١٧.

تلك عقيدةٌ ليست مُبْهَمَةٌ بل هي بينة واضحة متسقة مع الكون وحكمته، وهي - أيضاً - هادفة تُصحح سلوك الإنسان في الدنيا، وتؤهله لنعيم الله في الآخرة.

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

قلتُ: إنها عقيدة ليست مُبهمة بل هي هادفة، تدخل في سلوك الإنسان وعمله بتحديد الغاية والضبط والتهذيب، وتُقيم له من نفسه في سِرِّه وَعَلنه ألزم وأصدق رقيب.

وهي هادفةٌ أيضاً؛ لأنها تنفي العَبَثَ عن الخلق، وتحدد الحكمة منه.

وهي هادفةٌ أيضاً؛ لأنها تفي بميزان الحق وإقامة العدل، فلا يبقى في الناس مظلومٌ وظالم ما دام خطُّ السير ممتداً، وما دام بعد الدنيا حسابٌ وجزاء. فلا يذهب الناسُ مع هذه العقيدة صرعى حسرةٍ وألمٍ يكفرون بالمصادفة التعسة التي أوجدتهم ولم تنصفهم، وتركتهم ذئاب غاب يحيون معتدين بالظفر والناب.

إن أصحاب هذه العقيدة يؤمنون - في صراحة ووضوح - بقول الله تعالى:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢) ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٤)

(١) العنكبوت : من الآية ٦٤.
(٢) النجم : ٣٩-٤٢.
(٣) الزلزلة : ٧، ٨.
(٤) الأنبياء : ٤٧.

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (١)

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

عقيدة هادفة تَمْنَحَ أكْرَمَ حُرِّيةٍ للإنسان، تجعله - وقد اتضح أمامه كل شيء- يختار بنفسه لنفسه، ويحقق ما يحقق بسعيه وعمله، وتلك مرتبة من السمو لا تُدانيها مرتبة؛ لأن الإنسان معها يظفر بإنسانيته، وينعم بخصائصه، والجميع أمام الله سواء يعلم صادقهم وكاذبهم، ويرتب الجزاء على العمل فلا تظلم نفس شيئاً ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣)

والعلم في حقيقته يخدم هذه العقيدة ويثبت أمر اليقين.

أليس العلمُ نوراً وكشفاً ؟ وعلى ضوء النور يمكن أن يرى الإنسانُ الشيءَ على طبيعته وفطرته أليس الجهلُ ظلاماً وحيرة ؟. وهل يمكن تمييزُ الأشياء في الظلمة ومعرفةُ خصائصها وإقامةُ دليل عليها ؟!

إن العلم يَخْدُم قضية الإيمان مع قيامه براحَة الإنسان، والإيمانَ يضبط السلوك مع وفائه برضا الرحمن، وهل يَطهرُ بغير رضاه، أو يطيب عملٌ بغير الإخلاص له ؟!

وإذا انعدم الإيمان وانحرف السلوك تحول نورُ العلم إلى نار، وضياؤه إلى فتك ودمار، وتحولت غايتُه من سموٍّ بالإنسان إلى تسفُّل به، ومن برٍّ بالخلق إلى عبث بالمخلوق.

---

(١) الكهف : من الآية ٤٩.

(٢) النور : ٢٤،٢٥.

(٣) فُصّلَت : من الآية ٤٠.

وما أظن أننا بهذا ننتقص العلم قَدْره، ونحن نطلبه من المهد إلى اللحد، وإنما نرجو أن يقومَ مع سلطان العلم عَدْلُ اليقين. وأنْ يَسْتَقِيم على ضوئه أدبُ السلوك، وأنْ تَتَحطَّمَ من خلْفِه مَخبَّآت الهوى، وأن تشيد من ورائه دوافع الحرص على الإنسان وكرامته، وأن تدعم لقيامه حصونُ اليقين التي تحفظ النفس من الغرور وتحميها من التسلط والطيش، وأن يكون العلم خادماً للإنسان كله، فلا ينفرد بخدمة جسده واستجابة غرائزه، وينصرف عن رعاية أخلاقه وصفاته. وهو – أي العلم – إنما ينمو بمواهب الإنسان التي هي من خصائص روحه – والكل من الله ﷻ خَلقاً، وإيجاداً، وتسديداً، وتوفيقاً.

أفلا يطاعُ أمرُه ويحترمُ شرعُه تكريماً للإنسان ورحمة به ؟ أفلا يكون العلم – بنتائجه – خاضعاً للإيمان؛ حتى لا يهدم الإنسان بنيانُ الله في الأرض.

لا أخال الذين ينشدون العلم لغير ذلك إلا قوماً تَلَهَّوْا بما في أيديهم من نور، فتحول من نور إلى نار، ومن ضوء مرشد إلى نور مُحيِّر.

ما أجمل أن يكون الباعث على العلم شعوراً دينيًّا يخشع لقدرة الخالق في صُنْعِه، فيمضي بسلوكٍ طهور بين خَلْقِه. وما أضيعَ الإنسان إذا اتجه بعلمه لغير مرضات ربِّه.

روى أبو داود بإسناد صحيح عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ﷻ، لا يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنْ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا » (١)

اللهم اجعل أمرنا كله خالصاً لوجهك، إنك نِعْمَ المولى، ونِعْمَ النصير..

✿✿✿

(١) رواه أبو داود.

العلم في الإسلام

أيها القارئ الكريم:

إن العلم في الإسلام إنْسَانِيٌّ النزعة فطريٌّ المأخذ، لا ينحرف عن القصد ولا يتنكر للماضي. ولقد حاولت النهضة الحديثة - منذ زمن - أن تُدْخِلَ على المسلمين أن التقدم لا يرتبط بدين، فَعَلَّموا الْبَعْضَ أن يتهكموا بالدين كلما رأوا تقدم العلم ونتائجه.

والذين يتهكمون بالدِّين أو يَنْسَلِخُونَ منه كلما رأوا تقدم العلم، إنما هُم أحَدُ رجلين:

إما جاهل بالدين، لا يدرك من أمره إلاّ أن ناساً قد انخلعوا عن الدين فظفروا بالدنيا. وخرجوا على سيطرته فنعموا بالحياة، فحكم على الدين كلّه حُكْمَ هؤلاء على دينهم. وحَسِبَ أن باب التقدم هو الباب الذي وَلِجوُه. فراح ينال من الدين كله، ويدعو للتخلص منه؛ ليظفر بالدنيا وينعم بالحياة.

وإمَّا عالم بشأنه حاقد عليه، يعلم أن اليَقَظةَ التي تنْبَعثُ باسمه، والحضارةَ التي تقوم على ضوئه هي التي تحمل - في خصائصها - حقيقة الحياة وطبيعة الحركة المعمرة، وهو قد ورث هذا الحق، ولم يتجرد بعد لقبول الحق، فراح يرمي هذا الدين بكل قبيح، وينشر بين بعض أهله الغافلين: إننا تركنا الدين فتقدمنا، فدعوا دينكم؛ لتصلوا إلى ما وصلنا إليه، وتفوزوا بما ظفرنا به !!

وهكذا تعاون الجهل والعمى مع الطمع والحقد على دين الله. وأُدخلت على المسلمين أفكارٌ ونزعات أُريد لها أن تحقق الغاية البعيدة في إبعاد المسلمين باسم الشفقة

obeikandl.com

عليهم والحرص على مستقبلهم. وكان من رحمة الله بالمسلمين أن بدأت الغشاوة ترتفع عن أعينهم، وقد رأوا طمع العدو فيهم وحرصَه على تفريق كلمتهم وإضعافِ روابطهم.. وهو لن يستطيع ذلك قط إلا بإضعاف روح الدين في نفوسهم، وإبعاد نهضتهم عن حقيقة الدين.

ولقد أَبَى الدين نفسُه إلا أن يُعبِّر عن حقيقته، وآياتُه – بحمد الله – تُتلَى في كل مكان من أرض الله.. إنه دين بُني على النظافة، وشُيِّد على الطُهر، وأُسِّسَ على المعرفة والعلم، معجزته الباقية كتاب يُتْلَى، ورسالته رسالة عمل وسلوك. وطريقه السعي في سبيل الله سبيل الخير لطلب حياة أفضل. ونبيّه ﷺ يستعيذُ من الفقر كما يستعيذُ من الكفر.

أيُّ شئ فيه يدعو أتْباعَه أن يكونوا ذَيلاً لقافلة – أو كمًّا مهملاً في الحياة لا يُقام له وزن، حتى يقال: دعوه لتظفروا بالحياة.

وهو الذي لا يرضى لأمته إلا أن تكون دائماً خَير أُمَّة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. ولا يرضى لأتباعه أن يكونوا أبداً دون غيرهم منعةً وقوةً وحضارةً وعلماً. هو لا يرضاهم إلاَّ أن يكونوا سادةً مُوجِّهين، وعلماءَ مرشدين، وقادة متبوعين لا تابعين، وأغنياء متصدقين، ويتوعدهم بجهنم إن جاءوا إلى الله مستذلين أو مستضعفين.

وا عجباً للذين فُتِنُوا بنهضة العلم فظنوا أن الإسلام لا يمكنهم من الوصول إليها، فَتنكروا له وما دَرُوا أنه واضعُ أساسِها وباعِثُ نهضتها.

وإنه لا يقنع منها بالقدر الذي فتنوا به، بل يدعوا إلى الْمَزِيد الذي لا يُعرفُ له حَدٌّ، وإلى السمو الذي يتفق مع حكمة خلق الإنسان وما سُخِّر له.

وا عجباً للذين انصرفوا عن الإسلام لأنه دين والدِّين هجره قومٌ فظفروا بالحياة. وما دَروا أن الإسلام هو دين الحياة، يحتضنها بحقائقها الباقية، ونواميسها الخالدة، وتاريخها في ماضيها وحاضرها وما تنشده في مستقبلها، غير أنه يجنِّب الإنسان

الزلل، ولا يرضى إلا أن تكون الحضارة سبباً في سعادته، لا في شقائه.

وعلى الدارس المنصف أن يتدبَّر القرآن الكريم في توجيهه ونُصحه وإرشاده، وحديثه عن العلم وتذكيره بنعم الله بصورة تدعو إلى النظر والتأمل في شأنها، عليه أن يتدبر دعوته إلى الإنصاف والعدل والبر واتباع الحق؛ ليدرك معنا أنه دين الحياة بصدق، ويُوقن - كما أيقنا - أنه هدية الله إلى خلقه بحق، وليعتقد -كما اعتقدنا- أن حضارته هي التي تسوق الأمن والسلام إلى الإنسانية الظامئة إليها. والتي باتت - من جراء تنكرها للحق وانصرافها عنه - في فزع دائم، وتوتر مستمر.

فكأنها خُلقت لتجمع من أرض الله ما تصنع به جريمة الفتك بالأحياء، وإشاعة الخراب والفساد في الأرض !

إننا بدافع من هذا الدين نفسه ندعو إلى دراسته كما تُدْرَسُ النَّظَرِيَّاتُ العلمية التي تستوجب من الدارس نزاهته في الحكم. كما نطلبُ أن يُجرَّبَ اليوم في السلوك العملي، كما جُربَّ بالأمس، ليقف الناس على النتائج بأنفسهم. فإنْ أبى البعض إلا أن يحاربوه وأن يتنكروا له لأنه دين والدِّين تَرَكَهُ قوم ظفروا بالحياة في زعمهم - فليعلم هؤلاء أن عملهم هذا اصطدام مع نواميس الكون وحقائق الوجود. والعبرةُ قد مضت فيمن حاد أو جحد. ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[1]

أخي المسلم:

يأبى هذا الدين إلاَّ أن يعبِّر عن نفسه وعن حقيقته وصدقه في كل مجال. وتجربته قائمة بيننا. وتخلف المسلمين - وهم يبتعدون عنه - شهادةٌ له تضاف إلى

---

(١) آل عمران : ١٣٧.

التجربة على أن الإسلام يعطي عطاءه بقدر العمل، ولا ينظر إلى دعاوى الناس أو مظاهرهم ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (١)

تجربته فينا أننا كلما أخذنا أنفسنا به ارتفع شأننا وعَزَّ جانبنا وهابنا أعداؤنا وانتصرنا.. وكلما بعُدنا عنه نالنا من كيد أعدائنا ما لا طاقة لنا به إلا بالعود إلى حمانا وموطن عِزِّنا.. وصدق رسول الله ﷺ « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ » (٢)

✿✿✿

---

(١) النساء : ١٢٣، ١٢٤.

(٢) رواه مالك في الموطأ.

مع آيات من سورة الحج

أيها القارئ الكريم:

مع سورة الحج نأخذ من آياتها قبساً نستضئ به ونُبْصِرُ أنْفُسَنا على ضوئه.

الآياتُ التي مَعَنا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾[١]

يُنَبَّهُ النَّاسُ إلى مَصيرِهم، وأنهم مقبلون لا محالة إلى يوم ﴿ لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ ﴾[٢] ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ (٢٢) ﴾[٣]

---

(١) الحج : ١، ٢.

(٢) لقمان : من الآية ٣٣.

(٣) فاطر : ١٨- ٢٢.

obeikandl.com

إن الناس يتفاوتون في هذا اليوم بتفاوت إيمَانِهِمْ وأعْمَالِهم. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1]

أما المكذِّبون بآيات الله المستكبرون عنها فإن أعْمَالهم تسوقهم إلى جهنم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾[2]

ماذا يُعدُّ النَّاسُ لاستقبال هَذَا اليَومِ ؟

تقوى الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾[3] ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾[4]

انظر إلى مَن **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ ماذا يقول ؟

(١) يونس : ٩، ١٠.
(٢) الأعراف : ٤٠، ٤١.
(٣) النساء : من الآية ١.
(٤) البقرة : من الآية ١٩٧.

في الحديث المتفق عليه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: « قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ »[(١)]

وقد كان من دعاء رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول: « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى »[(٢)]

إن التقوى هي وصية الله لجميع خَلقِه من الأولين والآخرين ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾[(٣)]، وهي وصية رسول الله ﷺ « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ »[(٤)]، وقد كان سلف هذه الأمة - رضوانُ الله عليهم - يتواصَوْن بها.

فهذا أبو بكر الصديق ﷺ يقول في خطبته «أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهلُه، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحافَ بالمسألة، فإن الله ﷻ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[(٥)]

وكتب عمر بنُ الخطاب ﷺ إلى ابنه عبد الله: « أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله ﷻ؛ فإنَّه من اتَّقاهَ وقَاه، ومَن أقرضَهَ جزاه، ومَن شكرهُ زاده، واجعل التقوى نُصب عينيك، وجَلاَءَ قلبك ».

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) النساء : من الآية ١٣١.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) الأنبياء : من الآية ٩٠.

واستعمل عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ رجلاً على سرية فقال له: « أوصيك بتقوى الله ﷻ الذي لا بُدَّ لك من لقاه، ولا منتهى لك دونَه، وهو يملك الدنيا والآخرة ».

وكتب عمرُ بنُ عبد العزيز ﷺ إلى رجل: « أوصيك بتقوى الله ﷻ الذي لا يَقْبَلُ غَيْرَها، ولا يرحَمُ إلاَّ أهلها، ولا يثيبُ إلاَّ عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل. جعلنا الله وإياك من المتقين ».

وقيل لرجل من التابعين عند موته: أَوْصِنا. فقال: « أوصيكم بخاتِمة سورة النحل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1] »

أخي المسلم:

اجعل التقوى زادك، فلا عمل يُرجى بغيرها ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2]

واعلم أن الله يراك ويعلم سِرَّك وعَلَنك، فاتق الله أن يكون أهونَ الناظرين إليك، تستتر الذنب من الناس وتُظهره لله ؟ إن كنت ترى أنه لا يراك فأنت مشرك به، وإن كنت ترى أنه يراك فلا تجْعله أهونَ الناظرين إليك.

قال الشافعي – رحمه الله –: « أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قِلَّة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند مَن يُرجَى أو يُخاف ».

إن تقوى الله في السر علامة كمال الإيمان.

قال أبو الدرداء ﷺ: « اجْعَلِ التقوى أساساً في كلِّ أمرك. في تنفيذِ ما أُمِرْتَ أو اجْتَنابِ ما نُهيتَ عنه »، وقال الشافعي – رحمه الله –: « ليتق أحَدُكم أن تلعَنه

(١) النحل : ١٢٨.
(٢) المائدة : ٢٧.

قلوبُ المؤمنين، وهو لا يشعــر، يَخْلُو بمعاصي الله فيُلقي اللهُ له البغْضَ في قلوب المؤمنين »

إن الرجل ليصيبُ الذنب في السرِّ فيصبح وعليه مذلَّته، وكما قيل: « إن العبدَ ليذنبُ الذنب فيما بينه وبين الله، ثم يجئ إلى إخوانه، فيرون أثَرَ ذلك عليه » وهذا من أعظم الأدلةِ على وجود الإله الحق المجازي بذرات الأعمال في الدنيا قبل الآخرة، ولا يَضيعُ عنده عملُ عامل، ولا ينفعُ من قدرته حجابٌ ولا استتار. فالسعيد مَن أصلح ما بينه وبين الله، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق، ومن التمس محامد الناس بسخط الله عاد حامِدُه من الناس ذامًّا له.

أخي المسلم:

عرفت زادك فالزمه. تقوى الله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾[1]

أيها القارئ الكريم:

إن الله – جَلَّ وَعَلاَ – رحمةً بالنَّاس قَدْ بيَّن لهم طريقهم، وحذَّرهم من عدوِّهم، بل وكشف لهم مواقفه عند الشدة وساعةِ الجزاء ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ

(١) الطلاق : من الآية ٢، ٣.

مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]

وكل شدة تلقى الإنسانَ، بل كل ضيقٍ يمر به لا مخرج منه إلا بتقوى الله ﷻ ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ ﴾[2]، واللهُ – جَلَّ وَعَلاَ – قد أمر الناس أن يتزودوا بتقوى الله لهذا اليوم الرهيب (يوم القيامة): ﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾[3]

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾[4]

روى البخاري عن أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ. يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ

(١) إبراهيم: ٢٢.
(٢) الطلاق: من الآية٢.
(٣) المعارج: ٨-١٤.
(٤) عبس: ٣٣-٤٢.

يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، أُرَاهُ قَالَ: تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1] فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا »[2]

وروى البخاري أَنَّ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ! فَقَالَ: الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ »[3]

أخي المسلم:

إنك مأمور بالتقوى في السر والعلانية، فبالتقوى يجعل الله المخرج من الضيق، والتيسير من العُسر. واحذر الإصرار على ذنب أو إثم « **وأتبع السيئة الحسنة تمحها** »

إن التفريط قد يقع – أحياناً – مَن المتقين بترك مأمورٍ به، أو ارتكاب منهي عنه، لكنهم لا يصرون على هذا أو ذاك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[4] ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) الحج : من الآية ٢.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) الأعراف : ٢٠١.

طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[1]

ومن صفات المتقين أنهم ﴿ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ ﴾[2] إنهم يذكرون الله ويستغفرونه ويتوبون إليه ﴿ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[3]

في الترمذي عَنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا أَصَرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ فَعَلَهُ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً »[4]

وخرَّج الحاكمُ عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ ﷺ « أَنَّ رَجُلا أَتَى رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَحَدُنَا يُذْنِبُ. قَالَ: يُكْتَبُ عَلَيْه. ثُمَّ قَالَ: ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ. قَالَ: يُغْفَرُ لَهُ، وَيُتَابُ عَلَيْه، وَلا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا »[5]

وقيل للحسن: ألا يستحي أحَدُنا من ربِّه، يستغفرُ من ذنوبه ثم يعود، ثم يستغفر ثم يعود ؟ فقال: « ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تَمَلُّوا من الاستغفار ».

---

(١) هود : ١١٤.
(٢) آل عمران : من الآية ١٣٥.
(٣) آل عمران : من الآية ١٣٥.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه الحاكم في المستدرك.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾(١)

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾(٢)

أخي المسلم:

أرأيت كيف تُحافظ على تقواك بعدم الإصرار على الذنب أو الإثم بذكرك الله وتوبتك إليه، واستغفارك.

روى الترمذي عن أبي ذرٍّ جُنْدُب بن جُنَادَةَ، وأبي عبد الرحمن معاذِ بن جبل -رضي الله عنهما- عن رسول الله ﷺ قال: « **اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ** »(٣)

أيها القارئ الكريم:

إن الإيمان الصادق يحيا به الإنسان في العسر واليسر، والشدة والرخاء؛ لأن الإنسان به غنيٌّ، ينال الخير في جميع الأحوال « **إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** »(٤)

إن العقيدة لا تعرف التلوُّن، وإن أهلها ثابتُون راشدون بتثبيت الله لهم، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾(٥)

---

(١) طه : ٨٢.

(٢) النساء : ١١٠.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه مسلم.

(٥) إبراهيم : ٢٧.

فعندما تهلع النفوس ويفر النفاق بأهله هارباً يلتمس الأمن ويطلب المنفعة، ترى المؤمنين يثبتون بإيمانهم أمام العواصف الهوج والأخطار المحدقة ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[1]

أما المنافقون فإنهم يلوذون بالهرب في ساعةِ الخطر ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[2] إنهم يبحثون عن علل خارج نفوسهم يرتكنون إليها؛ ليفروا من الخطر إلى ما يظنونه أمْناً ومَنْفَعةً ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[3]

إن النفاق يفر بأهله فلا يفي بعهد ولا يثبت على مبدأ إنها المنفعة ينشدها حيث كانت ويتبدل بسببها من حال إلى حال، وينتقل من مائدة إلى مائدة. في ساعة الرضا تسمع منهم كلماتِ البطولة والشجاعة، وفي ساعة الخطر تراهم مسرعين بالفرار لا ترى منهم ثباتاً ولا وفاءاً ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ

(١) الأحزاب : ٢٢.
(٢) الأحزاب : ١٢.
(٣) الأحزاب : من الآية ١٣.

سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ
مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ
ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ
مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟
فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن
يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ
ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم:

تدبر هذه الآية من سورة الحج ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ
فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ

(١) الأحزاب : ١٢-١٧.
(٢) المنافقون : ١-٤.

ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾[1]، ومن الناس من يعبد الله على طَرَفٍ من الدين لا ثبات له ولا استقرار. إنَّه مضطرب مزلزلُ القدم، يتأمل المنفعة أين تكون فإن وجدها في هذا الدين أبدى استقراراً وثباتاً وإلا فرَّ هارباً.

إن أصابه خير – رخاءٌ وعافية – اطمأن به. وإن أصابه ابتلاء بالآلام في النفس أو الأهل أو المال ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ أي: رجع عن دينه إلى الكُفْر.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وقال عبدُ الرحمن بنُ زيد بن أسلم: هو المنافق إن صَلُحَتْ له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انْقلب فلا يقيمُ على العبادة إلاَّ لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنةٌ أو شدَّة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ۚ ﴾ فلا هو حَصَلَ من الدنيا على شيء، وأمَّا الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾

أخي المسلم:

إن العقيدة الصادقة ثباتٌ ينشد رضا الله في كل حال ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ﴾[2] من أجلها تُقدَّم الأنفس والأموال. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) الحج : ١١.

(٢) التوبة : من الآية ١١١.

ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

إن كلّ شئ يجب أن يخضع لهذه العقيدة، من نفسٍ أو مالٍ أو جاهٍ، وكلها نعم الله التي يبتلي بها عباده ويختبر.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[2]

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾[3]

إن الإيمان بالله هو أساسُ كلّ خير، والمؤمن بإيمانه يعالج أمره بالصبر والثبات، راجياً راضياً محتسباً، إن أقبلت الضراء وإن أقبلت النعماءُ عالج أمرها بالشكر بالصبر غير بَطِرٍ ولا متطاول بنِعَم الله على أحد، إن الذين يشترون الدين للمنفعة ويسخطون عليه إذا أضيرُوا ببلاء في النفس أو المال أو الأهل فهؤلاء طلابُ منفعة لا أصحابُ عقيدة. إن هؤلاء يخسرون في الدنيا عزهم وكرامتهم، بل يخسرون الدنيا نفسها ويخسرون الآخرة.. فلا بقيت لهم دنياهم ولا نعموا في آخرهم. فأيُّ خسران أبين من هذا ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾

إن هؤلاء لم تستقر نفوسهم بيقين، ولم تطمئن قلوبهم بإيمان، لأنهم لم يؤمنوا، وما يظهرونه من إيمان ما هو إلا خداع ونفاق ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ

(١) الحجرات : ١٥.
(٢) آل عمران : ١٤٢.
(٣) محمد : ٣١.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [1] إنهم يلتمسون المنفعة عند من لا يملكها، يخافون الضرَّ ممن لا يملك نفعاً ولا ضَراً ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾ [2] ذاك شأن من عُبد من دون الله وتعلق بما ضررُه في الدنيا – قبل الآخرة – أقربُ من نفعه، أمَّا في الآخرة فضَرره محقق متيقن ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾ [3]

أخي المسلم:

نجاتُك في صدق عقيدتك. وأن تُخْضِعَ كلَّ شئ لها، واختبر نَفْسَكَ في جميع أحوالك ومواقفك. هل هواك مع الله أو مع الدنيا، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب؛ فإن من الناس ناساً يضلون وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً.

✿✿✿

(١) البقرة : من الآية ٩.

(٢) الحج : ١٢،١٣.

(٣) الحج : من الآية ١٣.

obeikandl.com

مع آيات من سورة الحج

أيها القارئ الكريم:

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]

في القرآن الكريم سورة سُميت باسم هذه الفريضة. هي سورة الحج، أولها كما تعلم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾[2]

---

(١) الحج : ٢٦-٢٩.

(٢) الحج : ١، ٢.

obeikandl.com

وهي تفيد أن مجامعَ الناس كلَّها ستنتهي، وأن الناس مجموعون لميقات يوم معلوم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ (١) يوم الجمع الأكبر الذي يُجزي فيه المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧ ﴾(٢)

إن مؤتمراً سَنوياً عاماً يُعْقَد فرضاً في الحرم الآمن في كل عام. يلتقي الناس فيه من كل فج، يَطرح كلٌّ منهم اللباسَ الذي اعتاده في إقليمه ويرتدي لِباسَ الإحرام، ويدخل إلى منطقة التجمع متجانساً مع جميع إخواته وهو يردد « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك »

ملتقى أجناس مختلفة من جهات متباينة فلا يتفاضلون فيما بينهم بحسب أو نسب أو جنس أو لون، وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح، يلتقون وصوت نبيهم يحيا في ضمائرهم ويدوّي في أعماقهم. « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى** » (٣)

في ظل هذا الإيمان الخاشع والتجرد للخالق يدرس الناس شئوهم، ويشهدون منافعُهمْ، شئون يدرسها المتطهرون من عباد الله، الملبون الموحدون، لن يكون فيها استذلالُ شعب، أو استعمارُ أمة، أو استغلال حق.

---

(١) المطففين : ٦.

(٢) الحج : ٥٦،٥٧.

(٣) رواه أحمد.

شئون تدرس في حرم يجد الطير فيه أَمْنَه وسلامته، لا بُدَّ أن تُراعى فيه كرامةُ الإنسان وأن تُصان حرمته.

وإذا تأملنا فريضة الحج من بدايتها - وهي تفرض الإحرام من مواقيتَ محدَّدة، وللإحرام لباسُه وتلبيتُه وآدابُه الخاصة والعامة، وللإحرام مظهره الجامع الذي يجعل الناس يدخلون إلى منطقة الحرم وقد طرحوا ما به يتفاضلون ويتفاوتون، واتجهت نياتهم وعزائمهم إلى التزود من العمل الصالح الذي يقربهم إلى الله ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾[1]

إذا تأملنا فريضة الحج وجدنا وَحْدةً في كل شيء. في العقيدة، فالله واحد لا شريك له، والكل يستجيب لأمره، ويلبِّي نداءَه. ويبتغي مرضاتِه « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك » وَحْدة في الاتجاه. فالقبلة واحدة.

وَحْدة في الزمان، فالحج أشهرٌ معلومات. وحدة في المكان، فالطواف والسعيُ والوقوف ورميُ الجمار والنحرُ والتلبيةُ لها أماكنها المخصوصة المحدَّدَة.

وهذه الوحدة الشاملة تجعل عواطف الناس -الذين أقبلوا من جهات متباينة- تنصهر في بوتقة واحدة، فتمضي إلى طريق واحد هو طريق الخير والبر، طريق الهدى والفلاح. الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف معه ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[2]

(١) البقرة : من الآية ١٩٧.

(٢) الأنعام : ١٥٣.

هذه فريضة من فرائض الإسلام تربط الأوَّل بالآخر والسابقَ باللاحِق. وتجمع الأقطار المختلفةَ على عبادة واحدة تصل موكبَ النبوة من عهدِ إبراهيم، وهو الذي رفع قواعد البيت وشيده، وأذن في الناس بالحج بأمر ربِّه ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]

البيت بيتُ الله ربِّ العالمين ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[2] وهو أول بيت وُضع للناس، ونسبته إلى الله لم تتخل عنه حتى في عهود الجاهلية.

ونحن نعلم أن أبرهة حين أراد أن يستولي على البيت الحرام، وأن يصرف الناس عنه وساق إبل عبد المطلب - جَد رسول الله ﷺ - فطالبُ عبد المطلب أبرهةَ أن يُرَدَّ الإبل، قال أبرهة: أتسأل عن الإبل وتترك البيت الذي هو دينك ودين آبائك ؟! قال عبد المطلب: أما الإبل فهي لي، وأما البيت فله ربٌّ يحميه.

نعم، إن نسبة البيت ظلت قائمةً على مرِّ الدهور والأيام، وهذه النسبة تجعل من البيت موئلاً للناس جميعاً وحرماً آمناً للعالمين، وإذا كانت نسبة البيت إلى الله الواحدِ الأحد، فمن الطبيعي أن يكون باب القصد إليه هو الاعتراف برب البيت والإيمانُ به ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾[3]

(١) الحج : ٢٧.
(٢) آل عمران : من الآية ٩٦.
(٣) التوبة : من الآية ٢٨.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

في الحديث المتفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ(٢) وَلَمْ يَفْسُقْ(٣) رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » (٤)

أيها القارئ الكريم:

إن الإسلام بفرضيَّة الحج قد أرسى للإنسانية دعامتين:

الأولى: الاعترافُ الكاملُ بالآثار الطيبة للنبوات السابقة التي لم تخالطها أهواء الناس، و لم تنحرف بها شهواتهم. فجميع الأنبياء إخْوة يدعون إلى دين واحد هو الإسلام. ولكن أهواء الناس هي التي فرَّقت، فتخاصمت باسمهم، وهم جميعاً برءاء ممن خالف نبيًّا من الأنبياء و لم يؤمن برسالته، ومن فرَّق بينهم فآمن ببعضٍ دون بعض فقد كفر بهم جميعاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ (٥)

إن الإسلام هو الذي أحيا الاعتراف بهم، وقدَّمهم إلى الإنسانية إخوةً متحابين متعاونين في حمل رسالة الله عَبْرَ القرون ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ

(١) الحج : ٢٦.
(٢) الرفث : الجماع، ويُطلق على مقدماته، وعلى الفُحش في القول
(٣) الفسق : السيئة أو المعصية.
(٤) رواه البخاري.
(٥) النساء : ١٥٠،١٥١.

أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[1]

هذا دين الإنسانية كلّها. والأنبياء جميعاً دعاتُه وعاملون له.

الدعامة الثانية: إن الإسلام قد أنصف الحقيقة التي شُوِّهت على يد الأتباع الذين خالفوا رسلَهم وأنبياءهم، وردَّها نقية صافيةً تعانق في ساحتها جميعُ الأنبياء والمرسلين، والتقى على فطرتها الأطهارُ من الأولين والآخرين.

لذا لم يكن الحج مجرد فريضة تهذب النفس وتعصم السلوك، وتجمع أهلَ الجيل الواحد على الخير والبر. بل كان عنواناً للإخوة الإنسانية العامة على مرِّ الدهور وتقديراً للنبوات التي فرقتها الأهواء وانحرفت بها الشهوات مطالباً باتباع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[2]

دين هو في الأصل واحد.

وأنبياءهم جميعاً يأخذون من مشكاة واحدة، ويُنسبون إلى أبٍ واحد وهم جميعاً على ملته.

من هنا كان هذا الموكب المهيب - الذي يقام فرضاً في كل عام - إعلاناً قوياً عن وحدة الإنسانية في الاستجابة لله ربِّ العالمين، وعن سلامتها وهي تتآخى في طُهر ومودة، وتُعْلِنْ وَلاَءَها لصاحب الملك والنعمة، وهذا دعاءُ النبي ﷺ وقد رأى

(١) البقرة : ١٣٦.

(٢) البقرة : من الآية ١٣٥.

الكعبة المباركة « **لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يرجع السلام، حيِّنا ربَّنا بالسلام. اللهم زِدْ هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وعزاً، وزِدْ – من تعظيمه وتشريفه – مَنْ حَجَّه أو اعتمره، تشريفاً وتعظيماً وبِرّاً** »

وكان هذا الموكب أيضاً تهيئةً للإنسانية كي تتدارس شئونها، وتتداول منافعَها في حرم آمن، وبقلبٍ غير آثم، لا فسوق ولا جدال، بل زادٌ من الخير، ولباسٌ من التقوى ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾(١)

وكان هذا الموكبُ – أيضاً – شبكة الاتصال القويةَ بين الجهات المختلفة والأقاليم المتباعدة، تجتمع كلُّها في صعيد واحد، ثم تعود وقد انصهرت في بوتقة واحدة. تعود وفي قلبها للقيا حنين، وبين ضلوعها للعود شوق، وفي خواطرها للإنسانية وفاء، وفي صلواتها – وهي تتجه دائماً لهذا البيت – تقديرٌ للخير الذي يرمز إليه أيَّما تقدير، وفي مشاعرها وعواطفها وفاء للمعاني والمثل التي عادت بها من فريضة الحج.

وهكذا لا يدع الإسلامُ الفردَ ينطوي على أنانية مُفَرِّقة ليحيا وَحْده وإن هلك الناس. بل يطبعه بشرائعه وآدابه على الإيثار والحب والسلام والرحمة، ويجعلُ سبيل التقرب إلى الله البرَّ بعباده والألفةَ بين خلقه. وذاك هو أكرمُ السبل وأضْمَنُها لرعاية الإنسانية وحفظ حقوقها. وهو أضمنُ سبيل لإيجاد سلام دائم ينبع من ضمير الفرد ولا يُفرض عليه، ويتصل بعواطفه ومشاعره، وهو كذلك أضمن طريق لإيجاد رقابةٍ صادقة من ذات الفرد على نفسه بدافع من إيمان ويقين.

---

(١) البقرة : من الآية ١٩٧.

إن الوحدة التي تنشدها الإنسانية لا يمكن أن تتم إلاَّ في ظل دين لا يفرق بين جنس وجنس ولونٍ ولون، ولا يجعلُ للقوة والغلبة سبيلاً للسيطرة على نفوس الضعفاء، بل تُمسك بزمام النفس مؤمنةً صادقة لا يُرَى منها إلا ما يُؤلف القلوب ويقيم المودة، وهو يجعل قوة القوى في أن يُمسك زمام نفسه وأن يصرف عن الناس شرَّه.

فأنت ترى أن فريضة الحج هي عنوان سلام بين المجتمع البشري على اختلاف ألوانه دون تفرقة بين جنس وجنس. وإذا كان العَصر الحديث قد ألجأته ظروف التوتر المتتابعة لإقامة هيئة الأمم أو عُصْبَتِها أو مجلس الأمن، فإن السلام العظيم قد جعل من فرائضه إقامة هذا المؤتمر العالمي بخصائصه الحية ووسائله النظيفة، وجعله قُرْبَة إلى الله وتبادلاً للمنافع، وجعل المنطقة التي يتم التجمع فيها منطقة « **محرمة** » يُحرم فيها الفسوق والجدال، كما يحرم فيها التعرض لمخلوق بأذى أو إثم أو قطيعةَ. ومكانٌ يجد فيه الطيرُ أمنه وسلامته، جدير أن تجد الإنسانيةُ فيه طمأنيتها وإخاءها، وبرَّها، وأمنها، وسلامتها، لا تنابزَ ولا تقاطع، ولا أثرةَ ولا استغلال، ولا تفاضل بحسب أو نسب، ولا تسلط بقوة أو جاه، بل خشوعٌ وخضوع لله الواحد القهار.

إن هذا الدين بحق هو دينُ الفطرة ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ » (٢)

(١) الروم : من الآية ٣٠.
(٢) متفق عليه.

obeikandl.com

أيها القارئ الكريم:

إن الأيدي التي شيَّدت البيت ورفعت قواعدَه، قد ابتليت في صدق الإيمان بالله والتجرد له، فكانت على مرتبةٍ من الصدق صحَّ معها أن تنال هذا الشرف الخالد، وأن يُوكَلَ إليها أكْمَلُ عملٍ قَدَّسَهُ الإنسانُ وتقبَّله الرحمن.

إبراهيم عليه السلام أُلْقِي في النار وهو يحارب الشـــرك ويحطم الأصنام لم يزده ذلك إلا إيماناً بالله، وثقة فيه، وتوكلاً عليه وهو يقول: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[1] والدٌ يُطلبُ منه أن يذْبح ابْنَه – وما أشق ذلك على النفس – فيستجيب راضياً لأمر ربِّه وابنٌ يُعْرضُ الأمر عليه فلا يُرى منه إلا صدقُ الاستجابة لله وحسنُ الاعتماد عليه ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[2]

ألَيْست هذه أعلى مراتبِ الصدق ؟

هل هناك بلاءٌ أصعبُ على النفسِ من هذا البلاء ؟ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾[3]

إن العزائم كفؤها العظماء.

فإبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – جديران أَنْ يَرْفَعَا القواعدَ من البيت، وأن يَنَالاَ هَذَا الشَّرَفَ. إنهما قد ابتليا في قضيةِ التوحيد والإخلاص لله فصدقاَ وأحسنا،

(١) آل عمران : من الآية ١٧٣.
(٢) الصافات : من الآية ١٠٢.
(٣) الصافات : ١٠٦.

فليرفعا قواعدَ البيتِ المبارك، بيتِ التوحيد.

وهما يشيدان البيت يسألان الله أن يتقبل، ويدعُوَانه أن يجْعَلهُما مسلمين له ومن ذريتهما أمةً مسلمةً له، ثم يطلبان من الله أن يبعث في هذه الأمة رسولاً يهدي إلى الحق ويرشد إلى الخير، ويطهر من رجس الشرك بصادق الإيمان واليقين.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١)

أَلَمْ تكن هذه دعوةً مستجابة ؟ إي والله لقد استجاب الله الدعاءَ الصاعدَ إليه من قلبين صادقين عند الحرم الآمن والبيت العتيق. استجاب الله الدعاء فبعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)

---

(١) البقرة : ١٢٧-١٢٩.

(٢) الجمعة : ٢-٤.

دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة المباركة فاستجابها الله وأرسل مُحمَّداً ﷺ رحمة للعالمين، كما أُمِرَ إبراهيم بأن يؤّذن في الناس بالحج ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ (١)

أذَّنَ إبراهيمُ فوعى الزمن واستجابت القلوب في حنين وشوق. نعم إن النداء الذي أذن به إبراهيم وعاه الزمن واستجابت له الأفئدة.

سل الشوق دوماً وسل الحنين، سل موكب الطهر هنا وهناك، سل دار القريب ودار البعيد، سل الحرم الآمن والبيت العتيق. سلهم جميعاً عن صدق النداء لقد أذَّن إبْراهيمُ عليه السلام في الناس بالحج، فاستجابت القلوب بتوفيق الله وهدايته مُعلنةً ولاءها لله وحده لا شريك له (لبيك لا شريك لك).

إن الشرك بالله هو الدَّاء الذي يَفتك بالإنسانية ويحطم روابَطها ويُدَمِّر صلاتها، ويذهب بها في أودية سحيقة تتوزعها الأهواء وتأسِرها الشهوات ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢)

إن الأصل الأصيل الذي تدور عليه أحكام الحج – بل يَقُوم عليه أمرُ الدين كلّه – هو التوحيد، توحيدُ الله بالعبودية له والاستعانة به ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا ﴾ (٣)

---

(١) الحج : الآية ٢٧، من الآية ٢٨.
(٢) الحج : ٣١.
(٣) الحج : من الآية ٢٦.

إن الأصل الأصيل الذي تدور عليه أحكام الحج، بل يَقُوم عليه أمرُ الدين كلّه، هو التوحيد، توحيدُ الله بالعبودية له والاستعانة به ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾(1)

وكلما اتجهت النفوس بصدق إلى الله وأخلصت في طاعتها، كلمَّا عظم إخاؤها، وقويت روابطها، وائتلفت قلوبها.. فلا ألفة بغير إيمان، ولا إخاء بغير يقين، إن الله هو الذي يَؤلف بين القلوب – وما عِنْدَ الله لا يُطلبُ إلا بطاعته ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾(2)

أخي المسلم:

إن الإنسان يَمرُّ بالحياة ولا يقيم، ونعم الله في أيدي الناس ومَنْ حولهم تحدثهم بفضل الله، وهم بها مختبرون، فإن أخضعوها لطاعة ربهم فازوا وسعدوا، وإن بخلوا بها فقد بخلوا على أنفسهم ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝ ﴾(3)، فاستجب لربك حيث دعاك، ولا تركن إلى غير الله فتهلكَ مع الهالكين ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ ﴾(4)

---

(1) الفاتحة : ٥.

(2) الأنفال : من الآية ٦٢، الآية ٦٣.

(3) النمل : من الآية ٤٠.

(4) البقرة : من الآية ١٠٧.

obeikandl.com

لقد رأيت استجابة ابراهيم وإسماعيل لأمر الله. رأيت اسماعيل - عليهم السلام - وهو يقول لوالده: ﴿ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾[1] وما أمر به والده هو ذبح ابنه، وها هو ذا الابنُ - وقد أخبره والده بما رأي يقول: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

إن النجاة في الطاعة والهلاك في المعصية ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2]

أخي المسلم:

يُقَرِّبُ العبدَ من ربِّه صدْقُ طاعته وإخلاصهُ لله وحده؛ فأخلص القصد لله واستعن به وتوكل عليه ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[3]

❁❁❁

(١) الصافات : من الآية ١٠٢.

(٢) الأحزاب : ٣٦.

(٣) التغابن : من الآية ١١.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ ﴾

أيها القارئ الكريم:

نحن نريد أن نحيا مع آية من آيات سورة الحج جديرةٌ بحسن التدبر والتأمل والله – جَلَّ وَعَلاَ – قد دعا إلى تدبر آيات القرآن والاتعاظ بما فيها ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [1]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]

الآية التي نحيا معها الآن هي ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾[3]

وواجبٌ أن يتدبر كلُّ إنسان هذا المثل، حتى يقطع تعلقه بالمخلوقات، وأن يسأل الله وحده، وأن يستعين به دون سواه، وأن يعبدَه ولا يشركَ به شيئاً.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[4]

---

(١) ص : ٢٩.
(٢) محمد : ٢٤.
(٣) الحج : ٧٣.
(٤) آل عمران : ٦٤.

obeikandl.com

من هنا يبدأ تصحيح خطّ السير للإنسان، ويستقيم سلوكُه وعمله.

إن كل ضلال منشؤه فسادُ العقيدة وانحرافُها، وكل خذلان مصدره طلب الأمر من غير وجهه، عجزٌ يعتمد على عجز، وضَعفٌ يستنجدُ بضعف، ماذا تكون النتيجة ؟ خذلانٌ وخُسران. ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ ﴾[2]

ما أهون الذُّباب وما أضْعَفَ شأنه. والمعبودون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. وفي اختيار الذباب دون سواه - مع أنهم عاجزون عن خلق الذباب وغيره - بيانٌ للعجز والضعف على أبين صورة..

وانظر عندما ترى الذباب - مع صغره وحقارته - يَسلبُهم شيئاً فلا يستطيعون ردَّه ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ﴾

عجزٌ وراء عجز.. فهل يُستنْصر بهؤلاء ويستعان ؟

إن الذين تدعون من دون الله لا يقدرونَ ولو اجتمعوا وتساندوا - على خلق ذباب حقير صغير، كما لا يستطيعون أن يستنقذوا شيئاً من الذباب حين يسلبهم إياه، وكم يسلب الذباب شيئاً من المخلوقات فلا يقدر أحد على رد ما سُلِب ! ضعف

(١) سبأ : ٢٢.

(٢) الحج : من الآية ٧٣.

الطالب والمطلوب. إنه الضعف والعجز يسيطر على الموقف كلّه، من عابد ومعبود وطالب ومطلوب. ويأتي الذبابُ - في هذا الجو الملوث بالشرك - فيعطي دلالة الازدراء والهوان من العابد والمعبود.

والمعبودُ من دون الله غيرُ قادر على استنقاذ شيءٍ من ذبابٍ ينالُ منه ويَسْلُب.. فأي ضعف وأي عجز يكون عليه من يعبد من دون الله ؟ بل أيُّ ضعف وهوان لإنسان ينشد حاجة ومنفعة عند هذا الضعيف المهين ؟

ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [1]

أخي المسلم:

قلت: إنَّ استقامة الإنسان تبدأ من هنا، من صدق العقيدة، من معرفةِ الله، من خشيته، من عدم الإشراك به، من الإخلاصِ في عبادته، من الاستعانة به دون سواه.. من حُبِّه واحترام أمره، والرضى بقَدَره. عندئذ تتحدد قيم الأشياء، وتعرفُ غاياها، فلا ينخدع الإنسانُ ببريق زائف فيُخْضِع له أمَره، ويؤثِرهُ بحُبِّه، وكم من أشياءَ قد زُيِّنت أمام الناس، فأخذهم الزينةُ، وخدَعهم بريقُها فرضُوا بها واطمأنوا إليها !!

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

---

(١) الحج : ٧٤.

ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾[1]

❁❁❁

أخي المسلم:

إن رسول الله ﷺ يعلمنا أن تحقيق الإيمان في إخضاع هوى النفسِ لما جاء به ﷺ « **لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ هواهُ تبعاً لما جئْتُ به** »[2]

والناس حين يُفتنون بالحياة يذهب هواهم هناك بعيداً يمضي وراء سراء خادع لا يفيق منه المخدعون إلا عندما يأتي الأجل ويرى الإنسانُ نفسه وقد فقد كل شئ مما افتتن به وحَرصَ عليه: ﴿ **وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾** ﴾[3]

---

(١) آل عمران : ١٢-١٧.

(٢) الإبانة الكبرى.

(٣) ص : من الآية ٢٦.

إن الله أحلَّ لنا طيبات الحياة وامتَحننا بما أعطانا وأنْعَمَ به علينا.. هل نخضعُ نعم الله لطاعته فنظفر بالخير ونَنعمَ بالعاقبة ؟ أم تمتد أعيننا إلى زهرة الحياة، وننسى لقاء الغد وهو آتٍ لا ريب فيه ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

إننا جئنا إليها ونحن ممتحنون، ونحن نُدعى إلى دار السلام فهل نجيب نداء الله بإخضاع كلِّ شيء لطاعته فنظفر بالحسنى وننعم بالمزيد ؟

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]

(١) يونس : ٢٤.

(٢) يونس : ٢٥،٢٦.

obeikandl.com

مع سورة (الأنعام) في بعض آياتها

أيها القارئ الكريم:

إنَّ الإنسان في حاجة دائماً أن يُذَكَّر بخَلْقه، وأن يُدْرك غايَته، ويعرفَ عاقِبَته.

ونحن مع آيات من سورة الأنعام نبصر أمرَنا على ضوئها، ونهتدي بنورها

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠ ﴾[1]

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ ﴾[2]

ومَن يستحق الحمد والشكر إلا الله الذي خلق السماوات والأرض، وأظْلَم لَيلَهُمَا، وأنار نهارهما ؟ ثم كفر به مع إنعامه عليهم الكافرون - وعدلوا به من لا ينفعهم ولا يضرهم.

هل نَسِيَ الناس خلقهم وغَفِلوا عن بدايتهم ؟

إن خَلْقَ الإنسان بدأ من طين. خلق الله آدم من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾

(١) النور : من الآية ٤٠.

(٢) الأنعام : ١-٣.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾(١)

هذا التحديد النيِّر الواضح لخلقِ الإنسان وبدايته، وما وهبه الله من نِعم، وما منحه من أسباب المعرفة من سمع وبصر وفؤاد. هذا البيان يراد به أن يشكر الإنسان نِعم الله ولا يكفر.

﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(٢)

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(٣)

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٤)

إنه البيانُ والتذكيرُ والتبصرة للإنسان، كي يسلك طريق الحق وهو يشكر الله على نِعمه وفضله.. إنه يُذكِّر ببدايته، حتى لا يتكبرَ أو يبغيَ الفساد في الأرض

(١) السجدة : ٧-١١.
(٢) النمل : من الآية ٤٠.
(٣) النحل : ٧٨.
(٤) الملك : ٢٣،٢٤.

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ ﴾[1] إنك من التراب الذي تمشي عليه منذ خُلقت، وإليه تعود ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾[2] فاعرف حقيقتك، واعلم أن رداءك هو العبودية لله وحده، أما العزُّ والكبرياء فهما إزارُ اللهِ ورِداؤه ولا يُنَازَعُ فيهما، فمن نازعه في واحدٍ منهما عُذّب.

روى مسلم عن أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنهما – قَالا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ »[3]

نعم: يُذَكِّر الإنسان بأصله وبداية خلقه؛ ليستقيم أمرُه بعيداً عن الكبر والفخر والعُجْب والسمعة.. وتلك أمراضُ تقوم في النفس عندما ينسى الإنسان بدايته ونهايته.

ويذكّرُ الإنسان بنهايته ليعلمَ أن كُلَّ شئ محاسبٌ عليه. وأن الناس هناك لا يستوون وإلا كان خلق السموات والأرض باطلاً وعبثاً ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلاً ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾[4]

(١) الإسراء : ٣٧.
(٢) طه : ٥٥.
(٣) رواه مسلم.
(٤) ص : ٢٧، ٢٨.

هل يستوي محسنٌ ومسئ ؟ هل يستوي مؤمنٌ وكافر ؟ لا والله لا يستويان.

ونفيُ العبث عن الخَلْق يقتضي الحسابَ والجزاءَ، فلا بُدَّ من العود والرجوع إلى الله، ليجد الناس جزاء أعمالهم ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾[1]

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾[2]

هو الذي خلقكم فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صوراً وأجساماً، أحياءً، بعد أنْ كنتم طيناً جَماداً، ثم قضى آجالَ حياتِكم لفنائكم ومماتكم؛ ليُعيدكم تراباً وطيناً كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويَخْلُقَكُم، وأجلٌ مسمى عنده لإعادتكم أحياءً وأجساماً كالذي كنتم قبل مماتكم ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[3]

ثم أنتم تَشُكُّون في قُدرة مَن قَدَر على خلق السماوات والأرض وإظلام الليل وإنارة النهار، وخلقكم من طين حتى صيَّركم بالهيئة التي أنتم عليها، تشُكُّون في قُدرته على إنشائه إياكم من بعد مماتكم وفنائكم وإيجاده إيَّاكم بعد عدمكم ؟﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِى

(١) المؤمنون : ١١٥-١١٦.

(٢) الأنعام : ٢.

(٣) البقرة : ٢٨.

obeikandl.com

أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١)

أخي القارئ:

أنت تُذَكَّر ببدايتك ونهايتك؛ لترتفع غفلتُك وتُبْصِرَ أمرَك دونَ خداعٍ من هوى النفس أو وسوسةِ الشيطان.

اقرأ في خشوع وتدبر، وتيقظ لما تُوحي به الآيات من بعد ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (٢)

اللهُ أكبر.. إنها الإحاطة بكل شئ ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾(٣)، ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (٤)

قُلت: تيقَّظ لما تُوحي به الآيات. إنها توحي إليك أن استقم؛ لأن كل شئ من أمرك - صَغُر أو كبر، أو ضمر أو أُظهرَ - لا يخفى على الله الذي يعلم السر وأخفى ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾(٥)

---

(١) يس : ٧٨، ٧٩.

(٢) الأنعام : ٣.

(٣) المجادلة : من الآية ٧

(٤) الأنعام : من الآية ٣.

(٥) الملك : ١٣، ١٤.

لذا فإن الحساب هناك عادلٌ ودقيق ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1]، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[2]

في الحديث المتفق عليه عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ »[3]

أيها القارئ الكريم:

ما أعجب الإنسان حين تُحْدِقُ به الأخطار، وتُحيط به الشدائد.

إنه حينئذٍ يستغيث ويستجير، ويقسمُ ويتعهد ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[4]، ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾[5]

ثم إذا أعْطِيَ النعم وفازَ بالنجاةِ، نسي تضرعَه والشدةَ التي أحاطت به والعهدَ الذي قطعه على نفسه. فلم يبرَّ بقسم ولم يَفِ بعهد ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ

(١) الأنبياء : ٤٧.
(٢) النُّور : ٦٣.
(٣) متفق عليه.
(٤) يونُس : من الآية ٢٢.
(٥) الزُّمَر : من الآية ٨.

تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾[1]

إن هذا الحال حالُ كفرٍ وجُحُود ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾[2]

إن نجاة الناس حيث كانوا في برٍّ أو بحر، في أجواءِ الفضاء أو في باطن الأرض نجاتُهم تتوقف على فضل الله وحده ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3]

والناسُ حين ينعمون بالأمن، ويَمُدُّون بالنعم، ويَظْفرُون بالنجاة ينسون أنهم كانوا معرَّضين لخطر يحيط بهم أو يأتيهم من فوقهم أو من تحت أرجلهم ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى

---

(١) الزُّمَر : من الآية ٨.

(٢) فصلت : ٤٩-٥١.

(٣) الأنعام : ٦٣، ٦٤.

ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾[1]

﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[2]

ومعنى ﴿ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا ﴾ أي: يخلطكم فرقاً مختلفة الأهواء، تختصمون وتشتبكون في ملاحم القتال.

في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص ﷺ عن النبي ﷺ قال: « سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا »[3]

وروى البخاري عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: « لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ. قَالَ: ﴿ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ ﴾ قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ. فلما نزلت ﴿ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَاتَانِ أَهْوَنُ أَوْ أَيْسَرُ »[4]

(١) الملك : ١٦، ١٧.
(٢) الأنعام : ٦٥.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخاري.

وروى أبو داود والنسائي بسند صحيح عَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « مَنْ اسْتَعَاذَ باللَّه فَأَعيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ باللَّه فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ »(١)

إن الذين يلجئون إلى الله في الشدَّة، ويتضرعون في ساعة الخطر ثم ينسون الله في الرخاء، ويَبْغونَ في الأرض بغير الحق بعد النجاة، قومٌ ختم الله على قلوبهم. إنهم في قبضة الله حيث كانوا، لا مَهْرب لهم ولا مفر، إن بغيهم على أنفسهم، وسَيَلْقَوْنَ جزاءَ جُحُودهم وكُفْرهم ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾(٢)

أخي القارئ:

إن شُكْر الله على نعمه دليلُ الإيمان ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾(٣)، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾(٤)

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) الإسراء : الآية ٦٧-٦٩

(٣) سبأ : من الآية ١٣.

(٤) الأنعام : من الآية ٧.

إذا وصَلَتْ إليكم أطراف النِّعَم فلا تنفروا أقصاها لقلة الشكر.

إن الحُرَّ الكريم هو الذي يعرفُ فضلَ الله عليه، ويذكر نِعمَه، ولا يتبدلُ موقفه مع الرخاء والشدة والعُسرِ واليُسر، بل تراه في جميع الأوقات يذكر فضلَ الله، ويستعينُ به، وينْشُدُ رضاه ولا يخالِفُ أمْرَه. بل تراه يحفظ كلَّ معروف يُسْدى إليه حتى من عبادِ الله أنفسهم، لأنَّه صاحبُ خُلُقٍ وفِّي بارٌّ. لاَ عبد منفعةُ يضرع في الشدة وينسى في الرخاء.

وما يفعله العباد من معروف وما يُقدِّمون من عُوْن، جميعُه من فضل الله وحده، فإذا أُمرنا أن نكافِئهم ولم نجد ما نكافِئُهم به، دعونا لهم، أفلا نَشكر الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبرحمته يَرْحم الناسُ بعضُهم بعضاً ؟

روى أبو داود والنَّسائي بسند صحيح عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّه فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّــه فَــأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ » (١)

أخي المسلم:

كلُّ أمرك بيد الله وحده، له الخلق والأمر. والمؤمن يعرف الله في كل حال، ويشكره على نعمِه وفضله في جميع الأحوال. لا يضرع إليه في الشدة وينسى في الرخاء كما يفعل أهلُ الجحود والكفر. بل يذكر الله دائماً ويستعين به دون سواه. والله مع عباده الذاكرين، ويرضى لهم أن يكونوا شاكرين.

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٢)

---

(١) رواه أبو داود والنَّسائي

(٢) البقرة : ١٥٢.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾(1)

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾(2)

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾(3)

اللهم ارزقنا شُكْر نعمتك، ووفقنا لطاعتك، إنك نِعْمَ المولى، ونِعْمَ النصير..

٭٭٭

---

(١) البقرة : ١٧٢.

(٢) البقرة : ٦٦.

(٣) الزمر : ٧.